التحليل الوظائفي لكرامات "البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان "

لصاحبه ابن مريم الشريف[1]

أ . زيتوني فائزة
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)
أ.د .مشري بن خليفة
جامعة الجزائر (الجزائر)

Abstract:

Is the nation retains over its collective memory and the legacy of the popular heritage Gaii quenched important, as a human given a distinctive identity and dignity within this broad door.

To detect the various blades Alamah of dignities had to be a walk on the guidance of multiple theses of the study and criticism, provides us access to the desired, and perhaps this is close to the IPO, which his "Roland Barthes" and who put three levels contribute to the clarity of vision and capture structures relational text narrative and these levels are: level jobs. Acts and factors level. Narrative level. It must for these levels to be interconnected with each other, according to the kind of the gradual installation, it is not for the job with us only if it has a place in the act, and actively carried out, and not all of that with us, but when he is told and enter into a codified speech governed by private Sunan, bringing the literary text becomes the entity freestanding and monolithic integrated system of motivation and structures and relationships makes it imperative for the researcher who purports to see complementary in the study of texts that surrounds most of the pillars of this construction.

Therefore, this study will apply Occupational example, and that brought him "Probe" on mystical texts dignities in the book "Al Bustan", and will be the first breakthrough by definition Functional analysis

key words: Function- Speech- Narrative- dignity- Mysticism

Resume:

La nation conserve sur sa mémoire collective et l'héritage du patrimoine populaire Gaii trempé important, comme un être humain donné une identité propre et de dignité dans cette large porte.

Pour détecter les différentes lames Alamah des dignités devait être une promenade sur la direction de plusieurs thèses de l'étude et de la critique, nous donne accès à l'désiré, et peut-être cela est proche de l'introduction en bourse, que son «Roland Barthes» et qui a mis trois niveaux contribuent à la clarté de la vision et de capture des structures texte relationnel narratives et ces niveaux sont: des emplois de niveau. Lois et facteurs Niveau. niveau narratif. Il faut pour ces niveaux à interconnecter avec l'autre, selon le type de l'installation progressive, il est pas pour le travail avec nous que si elle a une place dans l'acte, et porté activement, et non pas tout cela avec nous, mais quand on lui dit et entrer dans un discours codifié régie par Sunan privé, ce qui porte le texte littéraire devient l'entité système intégré autonome et monolithique de la motivation et des structures et des relations, il est impératif pour le chercheur qui prétend voir complémentaire dans l'étude des textes qui entoure la plupart des piliers de cette construction.

Par conséquent, cette étude applique par exemple au travail, et qui l'a amené "sonde" sur des textes mystiques dignités dans le livre "Al Bustan", et sera la première percée par l'analyse fonctionnelle de définition.

Mots-clés: fonction- discours- récit- dignité- mysticisme

ملخص:

كل أمةّ تحتفظ عبر ذاكرتها الجماعية و إرثها الشعبي بتراث حكائي مروي مهم، بوصفهِ معطى بشري ذا هوية مميــزة والكرامات تدخل ضمن هذا الباب الواسع .

وللكشف عن مختلف الشفرات العلامية للكرامات كان لابد من السير على هدي أطروحات متعددة للدراسة والنقد، تُؤَمن لنا الوصول إلى المبتغى ، ولعل هذا قريب من الطرح الذي قدّمهُ " رولان بارث" و الذي وضع ثلاث مستويات تساهم في وضوح الرؤيا و القبض على البنيات العلائقية للنص السردي ، وهذهِ المستويات هي :

- مستوى الوظائف .
- مستوى الأفعال و العوامل .
- مستوى السّرد .

ولابد لهذه المستويات أن تكون مترابطة فيما بينها، وفقاً لنوع من التركيب التدريجي, فليس **للوظيفة** معناً إلا إذا كان لها مكان في **الفعل** ، و**فاعل** يقوم بها , وليس لكل ذلك معناً إلا عندما **يُروى** ويدخل في **خطاب** مقنن تحكمهُ سنن خاصّة, وبذلك يصبح النص الأدبي كيانا قائما بذاتهِ , ومنظومة تكاملية متجانسة من الدوافع والتراكيب والعلاقات[2] تُحَتِم على الباحث الذي يروم رؤية تكاملية في دراسة النصوص أن يحيط بأغلب ركائز هذا البناء .

وعليه ستقوم هذه الدراسة بتطبيق المثال الوظائفي ، والذي جاء به "بروب "على نصوص الكرامات الصوفية الموجودة في كتاب "البستان" ، والانطلاقة ستكون أوّلاً بالتعريف بالتحليل الوظائفي.

الكلمات المفتاحية: وظائف- خطاب-سرد-كرامة- الصوفية-

1) التحليل الوظائفي النظري للحكي : تعددت المقاربات وتنوّعت الجهود ، وتضاربت المفاهيم التي حضيت بها الأشكال السرديّة خلال النصف الثاني من هذا القرن ،الشيء الذي جعلها تحتل مكان الصّدارة داخل ميدان الدراسة والتحليل الأدبي واللساني .

وقد تحسّست أولى خطواتها داخل ميدان السرديات بالذات ، لكونه يشتمل على نصوص دسمة تضرب بجذورها في عمق التاريخ الإنساني ككل .

إن أيّة دراسة للسرديات تهدف إلى الكشف عن أسلوب بناء ، ونمط اشتغال هذه الأشكال الأدبية . ويعود الفضل الأول للانشغال بهذا الميدان إلى الباحث السوفيتي "**فلاديمير بروب** "(v. Propp)، الذي سيُخضع وللمرّة الأولى نصاً سرديا تمثل في الحكايات الخرافية الروسية، لدراسة لا تقف عند حدود التصنيف ألموضوعاتي، أو الضبط الخارجي لوحدات شكلية معنوية تضمّنتها ، بل كان همّه أعمق من ذلك بكثير ، إذ حاول مساءلة النّص في ذاته ولذاته عبر بنيته الشكلية ، من أجل تلمس الخصائص الحكائية التي تميزه عن غيره من الخطابات الأخرى .

إنّ منهجية بروب الشّكلانية في تحليل القصة الخرافية ،تصدر عن رؤية هيكلية ترى في الحكاية بنية مركّبة ، بل معقّدة التركيب ، ذات بُنى علائقية متشابكة لا يتم الكشف عن آليات الربط فيما بينها إلا بطريقة التفكيك ، واستنباط تلك العلائق ، وإبراز الوظائف التي تؤديها داخل السياق الحكائي .

ويعد عمل بروب هذا تجربة رائدة في مجال نقد القصة ، لدرجة أصبح فيها منهجه الوظائفي « قالباً منهجياً خليقاً بتطبيقه على المتون الحكائية لشعوب وقوميات مختلفة ، فضلاً عن أن منهجية بروب هذه أثبتت موضوعيّةً بحثيّةً تجعل النص هو منطلق النظر النقدي » .[3]

2) أساسيات المنهج ومقولاته : عن طريق دراسة استقصائية لمجموعة من الحكايات الخرافية الروسية ، وضع بروب كتابه المشهور" **مورفولوجيّة الحكايات الخرافية الروسية** "، وذلك عام 1929 م .

كان يطمح إلى الكشف عن العناصر المشتركة الدائمة أو الملامح البنيوية الثابتة المشكلة للمتن، ولا يتأتى ذلك إلا بعزلها عن العناصر المتغيرة غير الثابتة، والتي هي في حقيقة الأمر، مجرّد تمظهرات مختلفة، وتنويعات مكررة لبنية واحدة في الأصل.

أسس بروب نموذجه الوظائفي وفقاً للإضاءات ، أو لنقل الفرضيات الشكلانية التالية :

أوّلاً : أنّه سمى محاولته التحليلية هذه "**بالمورفولوجيا**" ، وهذا المصطلح يُحيل على وصف للخرافة الشعبية الروسية اعتمادا على مكوناتها ، وعلاقة هذه المكونات بعضها ببعض ، وعلاقتها بالمجموع .[4] أي وصف للحكاية وفقاً لأجزاء محتواها ، ورصد علاقاتها ببعض.

ثانياً : وسمى العناصر الدائمة أو الثابتة داخل الحكايات "**بالوظائف**" ، وهي : « أفعال قارّة ، نوعيّة ، تقوم بها شخصيات متنوّعة ، وذات تأثير على تطوّر الحبكة »[5]، أي أن الوظائف هي المحتوى الفعلي الذي يتحكّم في جميع الحكايات ، أو أنّها الأجزاء الرئيسية ، والمكونات الأساسية ، غير القابلة للتفكيك .

ثالثاً: يركّز إذا تحليله الوظائفي على الملامح القارّة للخرافات ، متنافياً مختلف التنويعات .

رابعاً : ووجد أن الوظائف تتوزّع – في نحو مائة حكاية خرافية روسية درسها – على إحدى وثلاثين وظيفة (31) ،يحكمها جميعاً منطق خاص ، ومن غير الضروري أن تتواجد كلّها في الحكاية الواحدة ، ولكن ما ورد منها لا يخرج عن حدود هذه الوحدات .

خامساً : إن تتابع هذه الوظائف متشابه دائماً ، وهي مترابطة ولا يلغي بعضها بعضاً ، إنّها خاضعة لعملية تصنيف تجعل منها قصّة واحدة متواصلة ، وهي على التوالي :

وظيفة نأي ، ابتعاد . وظيفة منع ، تحذير .وظيفة انتهاك ، خرق المنع .وظيفة التّحري ، الاستفهام .وظيفة الإخبار ، الاستعلام .وظيفة الخداع .وظيفة الخضوع ، التواطؤ ألقسري .وظيفة إساءة ، إثم .وظيفة التكليف ، الوساطة .وظيفة قرار البطل .وظيفة ذهاب ، انطلاق .وظيفة الاختبار ، إخضاع البطل للتجربة .وظيفة ردّ فعل البطل على الاختبار .وظيفة تلقي الشيء السحري .وظيفة الانتقال في المكان .وظيفة صراع ، المعركة .وظيفة علامة .وظيفة انتصار .وظيفة إصلاح ، تعويض النّقص أو الإساءة .وظيفة عودة البطل .وظيفة مطاردة المهاجم للبطل .وظيفة النّجدة المقدّمة للبطل .وظيفة الوصول المستتر للبطل .وظيفة المزاعم الكاذبة للبطل المزيّف .وظيفة المهام الصعبة المفروضة على البطل .وظيفة المهام المنجزة وظيفة التعرف على البطل الحقيقي وظيفة اكتشاف البطل الزائف. وظيفة تغيير هيئة البطل .وظيفة عقاب الزائف .وظيفة مكافئة البطل الحقيقي .

ثم شرع بروب في تحديد دوائر الفعل أو العمل، حيث تتجمّع عدّة وظائف بصورة منطقية لتخلق لنا دائرة فعل محددة لشخصيّة معينة ، وعدد الدوائر يتناسب وعدد الشخوص الفاعلة داخل الحكاية ، وهي سبعة دوائر مُبيَّنة كما يلي :

1-دائرة فعل المعتد ي أو المهاجم . 2-دائرة فعل الواهب (أي الذي يمنح الشيء السحري للبطل).
3-دائرة فعل المساعد .4-دائرة فعل موضوع الالتماس (أي الشيء الجاري البحث عنه) .5-دائرة فعل الموكل (الذي يرسل البطل في مهمة) .6-دائرة فعل البطل .7-دائرة فعل البطل المزيّف (مسعاه موازي لمسعى البطل الحقيقي ، ولكن ردُّ فعله يتّصف دائماً بالسلبية).

سادساً : إنّ الخرافات تنتمي – فيما يتّصل بينها – إلى نفس النّمط ، بمعنى أن هنالك تشابها في بنية الخرافات ، وترتيب وظائفها ، إذ تخضع لبنية عقليّة معينة ، حفظت مخزونا كبيرا في وعيها ولاوعيها ، من مدارك حسية ومعنوية ، وقدرا هائلا من المعلومات والأفكار والأديان والخرافات والتصورات الاجتماعية والدينية والنفسية والسياسية والطّبقية ...[6]

قدّم لنا بروب خطاطته الوظائفية تلك ، لدراسة ونقد النصوص الحكائية الخرافية ، وتعد بحق مشروعاً استكشافياً، يهدف إلى عزل الثابت عن المتحوّل في البنى الحكائية، للوصول إلى الجدع المشترك الذي يوحد كمًّا هائلاً من الحكايات ، ويجنح بها نحو التجريد ، بعيدا عن التنويعات والاختلافات الفرعية .

ولكن إلى أيّ مدى يمكن لهذا التحليل الوظائفي أن يثبت جدارته ، وصلاحيته في التطبيق على قصة ، عربيـــة ، إسلامية المحتوى ، صوفيّة التوجه ؟

3) مدى صلاحية المثال الوظائفي للكرامات الصوفية ؟

لا شك أن هذه المنطلقات المهمّة المتمثلة في: القومية (عربية)، والعقيدة (إسلامية)، التوجه (الصوفية)، تحمل في تضاعيفها خصوصيات من حيث الماهية والتصورات والآفاق واللغة التكوين الحضاري والأخلاقي والقيمي لأي شـــكل أدبي، لكونها أساساً لتمايز الشعوب.

ولكن هل هذا عذر يجعل المثال الوظائفي – ذو النشأة الغربية– غير صالح لأن نخضعه لهـــذا القالـــب الأدبـــي العربي الخالص ؟ هل من المشروع القيام بعملية التطبيق تلك ؟ وهل يُنتظر منها أن تحقق نتائج تذكر؟

إنّ المهتمين بدراسة الأدب المقارن، والكشف عن ظاهرة التثاقف والتلاقح بين الشعوب ، والحضارات الإنسانية توصلوا إلى تصورات مفادها أنّ العمل الإنساني في حقيقة أمره يمتلك بنية وعي وإدراك كلية ، تظهر في أنماط أدبية « معبّرة عن همّ إنساني ضمن بنيته الجزئية أو الخاصة على الرغم من تباين الأزمنة والأمكنة والأعراق ، إلا أننـــا نجـــد ثمّة تشابها في الهمّ الذي يطرح أسئلة الإنسان الوجودية أمام عالمه الذي يحكم وعي الإنسان في مشاعر متضاربة بـــين الحب والكراهية ، والحياة والموت ، الصدق والكذب ، الرغبة والرّهبة ، الطمع والإيثار ، العاطفة ، والمادّة ...»[7]

وعليه وجد أن الشعور الإنساني واحد في الطرح الحكائي خاصة لدى الأوائل في بناء ثيمـــة أساســـية لمجمـــل الحكايات على مبادئ أخلاقية ينتصر في نهايتها عنصر الخير، أو من ناحية تنظيم العلاقات التي تربط الإنسان بالطبيعة والإنسان والله والمادة ...

وعليه فلا اعتراض على تطبيق منهج بروب على القصص الصوفي ،أو على أي نوع مـــن المتـــون الحكائيـــة العربية الأخرى .

فقيام هذا المنهج أساساً على دراسة الحكايات الخرافية ، لا يعني بأي حال من الأحوال أنّه سيبقى حكراً على هذا الشكل ولا يصلح إلا لدراسته ، كما لا يعني ذلك أن نأخذه كما هو - بحذافيره - ونقحمه في مقاربة قوالب أدبية متنوعة ،قد لا تتناسب معه لا من حيث الشكل ولا من حيث المحتوى.

إذ تبقى قضية تمتع الباحث بالحس ألانتقائي و عدم الالتزام بحرفية المنهج ، بل له مساحة مشروعة من الحريـــة يتحرّك ضمنها بكفاءةٍ وذكاء أثناء توظيفه لمقولات أي منهج وآلياته ، وأدواته الإجرائية ، بما يخدم أغراضه من جهة ، ويتماشى وخصوصية الأثر الأدبي من جهة أخرى .

4) التحليل الوظائفي التطبيقي لكرامات "البستان" : كل حكايةٍ أو قصة « تمثل مساراً متنامياً ، وملفوظاً يعبّـــر عـــن طريق وحدات توزيعية معيّنة تنقسم إلى نوعين من الوحدات السردية : الوظائف والمتواليات ، وتنتمـــي كـــل وظيفـــة لمتوالية ، كونها تمثل أحد مكونات مسار متنامٍ ، وتمثل المتوالية أصغر حلقة مكتملة وممثلة للقصّة، إنّها تحققات منطقية لقصة صغرى ، تمثل تتابع اللحظات : الماقبل / الأثناء / المابعد »[8]

وعليه يمكن تقسيم النّص إلى المتواليات التالية :

1. المتوالية التمهيدية: أو الاختبار التمهيدي التهييئي ، ويشمل المرحلة الابتدائية في القصة .
2. المتوالية الأساسية: تضم جميع الوظائف الأساسية الوسطية ، ويمكن تسميتها بالاختبار الحاسم.
3. المتوالية النهائية: يجمع الوظائف الختامية ، ويسمى بالاختبار التمجيدي ، أو المشرّف .

وعليه فإنّ أي تحليل وظائفي للكرامات لابد أن ينطلق من المتوالية التمهيدية : التي سمّاها بروب بـــ :

1) وضعية مبدئية (حالة أولية) : وهنا يجوز لنا أن نطرح السؤال التالي :

هل تبتدئ الكرامات مثلها مثل الحكايات الخرافية بتلك الوضعية البدئيّة ؟

غالباً ما تُستهل الحكايات الخرافية « بعرض لوضعية بَدْئِيّة. فيتم تعداد أفراد العائلة ... ومع أن هذه الوضعية ليست وظيفية , فهي تشكل عنصراً مورفولوجيّاً هامّاً »[9] .

أما قصص الكرامات فإنّها غالباً ما تفتتح بالجمل الاستهلالية كوضع تركيبي مورفولوجي مهم يهيئ ذهنية المتلقي لاستقبال الوظائف الأساسية التي سينهض بمهامها البطل (الولي) في الكرامة .

إنّ الاستهلال كوضع أولي غالباً ما يخلق بعداً تشويقيا ، فضلاً عن خلق أفق توقع يمكن الركون إليه في تحديد عام لنمط الشخصية الصوفية و جغرافية حدث الخرق الكرامي الآتي .

وفي الغالب لا تكون تلك الافتتاحيات صادمة أو مفاجئة أو تعلن في أزمة ما ، بل تبدأ في الغالب بوضع مستقر هادئ يتحول إلى العكس مع أولى الوظائف .

وإن شئنا أن نخضع هذا الوضع الأولي لخصوصية النصوص الكرامية ، لأمكننا أن نجعلها تشتمل على سلسلة السّند: باعتباره تجسيدا للافتتاحية اللفظية والمعنوية لهذه الحكايات الصوفية .

وعليه يقوم السّند مقام الوضعية الأولية في الكرامة ، لكونه الإطار الخارجي الذي تبتدئ به الكرامة ، يقود زمامه الراوي ، ويجعله خاصاً بذكر من نقل عنهم من الرواة ، موهما المتلقي بدقة اختياره لهم ، مراعياً في ذلك شهرتهم في الرواية ، وخبريهم في تحصيل الأخبار ونقلها ، وكذا علمهم ، وأمانتهم ...

وكما سبق وأشرنا أن فيه البسيط وفيه المركّب،

من مثل :

- « وأخبرني من أثق فيه من الفقهاء الصالحين ...».
- « وذكر لي بعض من أثق به ، أنّه سمع من بعض الناس ...».
- « وله كرامات كثيرة ، حدّثني كبير أصحابه ...».

من خلال النماذج الاستهلالية السابقة، وغيرها، يمكن أن نخرج بالملاحظات التالية على الحال الأولية لكرامات البستان:

- أن سند الكرامات يدخل ضمن هذه الوضعية الأولية .
- أنه كان متفاوت الطول والقصر ، وإن كان يغلب عليه القصر مما يسمح لنا بالانتقال مباشرة إلى الوظائف الأساسية
- يُعنى فيه بتوثيق رواة الكرامة ، وضبط مصادرها ، وهو ما لا نجده في افتتاحيات القصص لدى الكثير من الشعوب حين تطمح إلى تدوين أدبها الشفهي فهي غالباً ما تنسبه إلى مجهول .
- لا تفتتح جميع الكرامات بذكر السند فمنها ما يفتتح فقط بعبارة " وله كرامات كثيرة منها " ، ومنها ما يفتتح بذكر لمكان الكرامة ، وموقع الخرق من مثل « ولقد شاهدت عجائب وذلك أنّه لما أردنا السفر من عنده إلى تلمسان ...» ، وغير ذلك من التحديدات التي يُطالعنا بها الراوي منذ البداية ، والتي حتما سيكون لها دورا مميّزا داخل الكرامة.
- وكل ما يمكن أ ن نقوله عموما على الافتتاحية الكرامية وما يدخل في فلكها - من ذكر للسند والزمان والمكان جمل استهلالية بسيطة – أنّها كانت تتسم بالإيجاز والاختصار « وهو أمر مستحبٌّ ومطلوب ، إذ لا ينبغي إطالة المقدمة لئلا تورّث السأم عند المتلقي أو المروي له ، وتقطع عليه استعداده لتلقي الحدث الرئيسي والمهم في القصة ، فضلا عن أن المقدمة الاستهلالية عنصر ثانوي في الحكاية ، ولهذا لم يجعلها بروب من ضمن الوظائف السردية في الحكاية »[10]

وبعد الوقوف على الوضع الأولي ، ننتقل مباشرة إلى تحديد الوظائف التي يمكن استخراجها من الكرامات في شكل متواليات أساسية ، تضم الوظائف التالية :

2) الوظائف:

1. وظيفة نأي (الابتعاد / الارتحال / السفر)

أ- **تعريفها:** يقول بروب :« إن النأي يمكن أن يكون من فعل شخص ينتمي لجيل راشد »[11] وانتماؤُه للجيل الراشد في العائلة يعني أن له مركز ثقل في الوضع الأول للأحداث وعند مغادرته تتأثر الحالة الأولية الهادئة الرخية الرتيبة لتستقبل حدثاً مفاجئاً و اضطراريا بتغير بسببهِ خط السير الأحداث في الكرامة فهي أولى الوظائف وفاتحة أحداث الكرامة .

ب- **أشكالها:** من الأشكال المتنوّعة لوظيفة النأي في كرامات البستان نجد ما يلي:

الذهاب إلى خلوة أو إلى مكان بعيد عن الناس ، والانقطاع للعبادة والمجاهدة والتأمل والتّدبر في ملكوت الله، ودراسة مسائل العلم : ويمكن اعتباره نأيا اجتماعيا ، أكثر منه نأيا جغرافيا، لأنّه لا يشكل ارتحالا مكانيا، بقدر ما هو انقطاع عن الناس لله ، من أمثلة ذلك نجد

- كرامة (11 – أ) « كنت في أوّل أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث ، قنعت به وانصرفت **لموقع خالٍ** أتخذه مأوى للعمل بما فتح الله به علي ».

أو أن يكون النأي زيارة لأحد الأولياء بمنزله ، أو مقامه ، أو مجلسه ، أو زاويته ...للاستفسار عن مسائل في الدين والدنيا أو قصد الاستزادة من علمه ، والإقتداء بعمله ، أو لمجرّد السلام عليه والتّبرّك بدعواته : من أمثلة ذلك نذكر :

- كرامة (8 – ب) «...قال : لما قدمت تلمسان ...كنت أحضر مجلس الشيخ سيدي قاسم العقباني مدّة ...».
- كرامة (12 – ه) «...قال ...والدي بعثني من تلمسان ...».

وقد يكون سفر جماعي طويل للحج أو لأماكن أخرى : من ذلك

- كرامة (13 – أ) « سافرت للصحراء أريد الذهاب للسودان ...».
- كرامة (11 – د) « قال : مرّ شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب ».
- كرامة (15 – و) « ومنها ما روي عنه أنّه خرج من عين الحوت طالعً لتلمسان هو وخديمه ...».

أوقد يرقى إلى عروج للسّماء و سفر للحقّ وامتثال بين يديه :

- كرامة (11 – ب) «أوقفني ربّي عزّ وجلّ بين يديه ...».

أو هو سفر بدون وجهة محدّدة أو غاية مقصودة – سفر ضياع وعدم استقرار : تجسّد خاصة في

- كرامة (15 – هـ) «...قال لي كنت في ابتداء أمري أقرأ عند العرب ، وأركب معهم ، وأسير معهم حيث ساروا ، فدخلنا مرّة وهران ...».

شكل آخر لتمظهرات وظيفة النأي في كرامات البستان يتمثّل أساساً في تحوّل الحدث في المتتالية الأولى من حالة سكونية - وظيفة حالة – إلى حركة وتغيير – وظيفة حركة – عن طريق وصول جماعة من الناس كانوا مسافرين وهؤلاء يكون لهم باع كبير في تطور أحداث الكرامة مثلما نجد في :

- كرامة (19 - أ) « ...أنّه جاءه الزّوار من بلاد المغرب ...»

إذ تبدأ الوظيفة الأولى ليس بمغادرة الولي ،أو أحد أفراد عائلتهِ ، أو أتباعهِ – بل على العكس تطلعنا بحالة سكونية لهُ - إنما بمجيء مسافرين إليه مرتحلين من مكان بعيد قاصديه لأغراض مختلفة ، فليس البطل من قام بفعل السفر وإنما قام باستقبال المسافرين.

2. وظيفة منع :

أ – تعريفها : هي الوظيفة الثانية بعد النأي ، وفيها يمنع أحدهم من القيام بشيء معيّن ، وإتيان هذا الأخير لـــه يُهَيّـــئ الطريق أمام حدوث الافتقار اللاحق .

ب – أشكالها : جاءت على عدّة وجوه وأشكال في الكرامات

قد يقوم الأمر بشيء ما مقام المنع , فإذا لم يتحقق القيام بذلك الشيء يتجسد لنا خرق لفعل الأمر من خلالهِ : وهو ما نجدهُ في

- كرامة (8 - ز) « لما نزل السلطان أبو فارس بتلمسان وكان السلطان بها ابن أبي تاشفين قاتلهُ مع أهل تلمســـان, فغضب السلطان أبو فارس غضباً شديدًا وضيق بأهلها وحلف إن لم يفتحوا لي الباب بالغد لأمرنّ بالنهب فيها ثـــلاث أيام ...».

أما إن تعلق الأمر بمنع الولي شخصا ما من القيام بشيء ما فإن وظيفة المنع تكتسي هنا نوعـــا مـــن الأهميـــة البالغة، وتصبح جزء لا يتجزأ من مجرى الحبكة الحكائية

ذلك أن بعض الكرامات يكون الخرق فيها - ذروة الحبكة - بعد إصدار الولي أمرا ما منعا لفعل، أو أمر للقيام به من مثل ذلك نجد:

أن يطلب الولي من أحدهم غلق باب المسجد عليه، و لا يقطع خلوته أحد

– كرامة (4- ب) "...فدخلت جامع الحلفاويين فوجدت فيه سيدي أحمد بن الحسن وهو لا يعرفه أحد في ذلك الـــزمن، فقال لي: يا أخي إذا خرجت فأغلق على الباب فإني أريد أن أنام هنا شيئا..."

أن يأمر الولي من أحد العُصاة كفّ أذاه عن الناس ويحذره ويطلب منه رد المظلم لأهلها

– كرامة (15-د) " ....أن الشيخ عثمان بن موسى المسعودي العامري كان طاغيا جدا ولا يبالي بأخذ الأمـــوال وذبـــح الرجال من غير سبب، أخذ مالا كثيرا البعض ممن ينتمي إلى الشيخ سيدي محمد الهواري فبعث الشيخ...وقال لـــه "...ما وجدت ممن تتعدى عليه إلا من ينتسب للشيخ سيدي محمد الهواري؟ سترى عاقبة أمرك إن لم ترد ما أخذت له في الحال...".

أن يمنع الولي بعض أتباعه من الاقدام على شيء ما رغم أن ظاهره فيه الخير ولكن الولي يعلم خلف ذلك الخير سرا آخر لا يتجلى إلا له وبالتالي تقع حيرة من معه أمام موقف الشيخ الذي يكون مبهما غير مبرر مثل :

- كرامة (15- ح) "...لما أردانا السفر من عنده إلى تلمسان ...ظهرت أيام طيبة فأردنا أن نغتنم فيها الســـفر إلـــى تلمسان خوفا من حدوث الأمطار ونحوها مما يعطل عن السفر، وصرنا جميعا ننتظر إذن الشيخ...فاتفق أننا أصبحنا يوما ثقل فيه السحاب وأظلم الجو فيه وكثير فيه المطر وليس محلا للسفر أصلا ولا يتوهم فيه، فإذا بالشـــيخ بعـــث وراءنا مع الفقراء أن نودعه للسفر.

كان الجميع ينتظر إذن الشيخ في الأيام الهادئة الصحوة بالسفر ولكنه لم يفعل بل أذن لهم بذلك في يوم غائم ممطر.

أن يطلب الشيخ من خادمه شيئا ما يفعله أو لا يفعله، أولا يتجاوز فيه القدر الذي حدده له.

- مثل كرامة (24- ب): « ....أن رجلا يخدمه وعند الشيخ عرصة فيها التين والعنب فبعث الشيخ ذلك الرجل يأتيـــه بالتين والعنب وأمره أن يأكل شيئا قليلا، فيأكل ذلك القدر الذي حدّه له الشيخ » فقط فلا يزيد عليه.

3 . وظيفة انتهاك المنع (خرق):

تعريفها : وتتطابق أشكال الانتهاك أشكال المنع وتشكل هاتان الوظيفتان (منع ، خرق) عنصرا مضاعفا[12] ويبدأ مـــن خلالهما حصول الافتقار أو حدوث الإساءة.

وهنا يجدر بنا الإشارة أن ما يميز الكرامات أو القصص الصوفي بصفة عامة أن وجود وظيفة المنع لا يستلزم وجود انتهاكه بل في الأغلب يكون الالتزام به وتطبيقه ، لأن الإنسان العادي بقدراته المحدودة وبأفقه الضيق لا يملك أن يخالف أمرا أصدره الولي ، حتى وإن لم يدرك الحكمة من موقف الولي في حينها.

أشكالها : **أن يستجيب الأتباع لرغبة الولي مع عدم الرضي عنها بداخلهم** (تغليب رغبة الولي عن رغباتهم الشخصية).

- كرامة (15- ج) «...فودعناه، وقلوبنا فيها أمرٌ عظيم من الخروج في ذلك الهول فسمعنا وأطعنا مكرهين فخرجنا والمطر يصب علينا...».

أن ينفذ الرجل ما أمره به الوالي ، من دون تردد أو استفهام ، وهو ما نجده في

- كرامة (4- ب):« ...قال: فخرجت وأغلقت عليه الباب..».

ولكن الأمر لا يتم دائما بالطاعة والاستجابة ، إذ قد ينتهك بعضهم منع الولي له كما نجد في الكرامات :

أن يرفض الظالم طلب الولي بردّ المظالم لأهالها بل ويعتدي على من أرسله الولي له ليكون ذلك إعلانا عن تمرده واستهزاءه بالولي ورفضا لولايته ، مثل

- في كرامة: (15- د) « فأمره بردّ ما أخذه لذلك الإنسان الذي ينتمي إليه ، فزاد عتوّاً وأخذ خديم الشيخ الذي ساق إليه الكتاب وكَبَّلَهُ...».

أو أن يزيد الخادم عن الكمية المحدودة له ، مثلما في

- الكرامة (24- ب) « ...إلا ذات يوم زاد على القدر المحدد له...».

4 . وظيفة إساءة (الإثم):

تعريفها :هي في الحقيقة الوظيفية الثامنة وليس الرابعة ، إذ تأتي بعد الوظائف التالية: التحرّي، الإخبار، الخداع، الخضوع، إلا أننا لا نكاد نعثر على تلك الوظائف في الكرامات ، وذلك يعود إلى أنها في الأصل وظائف تتطلب طول الحكاية وتعدد أحداثها وتنوع ومجرياتها بينما الكرامة، كما سبق وأشرنا. تمتاز بالإيجاز والاختصار.

وفي هذه الوظيفة يُحْدِثُ المعتدي، خصم الولي، ضررا للولي أو لأحد أفراد عائلته أو تابعيه ... فيلحق بهم الإساءة، إنّها وظيفة بالغة الأهمية، نظرا لأنها تهب الكرامة حركتها[13] والوظائف السابقة الذكر هي في الحقيقة تمهيدا وتهيئة لحدوث هذه الوظيفة، فتجعلها ممكنة، وتسهل السبيل إليها.

أشكالها : وتكتسي وظيفة الإساءة هذه أشكالا باللغة التنوع :

أن يكون مصدر الإساءة هو الشيخ أو الولي وذلك ردعا لظالم ما أو تأديبا لحاكم، أو صدّا لسلطان متجبر

- كرامة (15- د): «...فغضب الشيخ غضبا شديدا حتى أسود وجهه، وقام على الفور، ودخل خلوته ساعة وسمعته يقول: مفرطح مفرطح، كأنه يبين لمأمور بإهلاكه صفة هلاكه...»

أن يحدث الولي إساءة لأحدهم بسبب مخالفته لأوامره فيكون سببها الولي لأنّ المأمور لم يحترم تعليمات الولي ولم يلزم أمره مثل

- كرامة (24- ب): «...ثم انفتح بطنه وأشرف من ذلك على الهلاك...» .

وقد تكون الإساءة صادرة عن شخص ما في الكرامة ضد الولي أو أحد أفراد عائلته أو أحد أتباعه أو أقرانه من الشيوخ أو حتى خدمه، وغالبا ما يكون محدث الإساءة هنا هو السلطان مثلما في

- كرامة (8- و): «... كان من أصحاب الشيخ القدماء الملازمين له... قال: كنت في ابتداء أمري ذا مال كثير، فبعث ورائي السلطان عبد الواحد، وأمر بسجني في الدويرة من غير سبب...»

قد تحمل الإساءة معنى الاعتداء لا على الولي وأهله فحسب بل الاعتداء على ممتلكاته أو حقه المخصوص في الخلوة والوحدة ، من ذلك

- كرامة (4- ج): «...فلما جاء الشيخ سيدي أحمد للمقصورة يتهجّد فيها، ذهبت فأردت أن أدخل عليه في المقصورة ...»
- وكرامة (3- أ) «...ذكر أن السراق دخلوا روضه يسرقونه، فوجدوا السفرجل فرفعوا منه شوامي على ظهورهم وأرادوا الخروج ...»
- كرامة (8 – د) «... قال الشيخ إبراهيم : أنه حين صعد إلى الحج، وذهب له "ببرقه" حمار جيد ، فحازه عنه العرب، وقال : أنا أضيع إن لم يرجع إلي الحمار لشدة احتياجي إليه ...»

لكن غالباً ما تبتدئ الكرامة بحدوث الإساءة مباشرة من دون تلك المراحل التدريجية السابقة ، فيكون الافتقار هو المرحلة الاستهلالية للكرامة ، وأهم جزء فيها خاصة إن كانت الإساءة تتعلق بي :

- **افتقار طبيعي :** بأن يكون هنالك جفاف شديد ، أو حرارة مرتفعة ، أو سيلان عظيم ...من مثل :

- كرامة (4 – أ) :« وأخبرني من أثق به من الفقهاء الصالحين أن الشيخ سيدي أحمد بن الحسن كان في سوق ندرومة يوم الخميس يملأ إبريقا له بالماء في زمان الحرّ ويدور على الناس في السوق يسقيهم الماء إلى أن يفترقوا من غير أن يجدد فيه ماء ...»
- كرامة (14 – ب): « ومنها أنهم أتوا واديا فوجدوه حاملا لا يجوزه إلا الفرسان، وكانت عنده حمارة يحمل عليها...»

- **افتقار اقتصادي :** أي أزمة غلاء تعاني منها البلاد كلّها، من مثل :

- كرامة (4 – ب):« أنه كان بتلمسان فيما تقدم من الزمان ، غلاء شديد، تعطلت الصلاة بسببه في كثير من المساجد ... »
- كرامة (14 – أ): « أنه اشتد الغلاء في محلة أبي عنان بقسنطينة حتى بلغ الفول ثمانية بدرهم، فعظم الحال...»
- كرامة (25 – أ):« ... وذكر المتقدمون أنه وقع غلاء كبير في تلمسان حتى تعطلت منه المساجد وانغلقت، وبعث السلطان لأهل البلد وطلبهم في الزرع للشراء، فلم يجده عند أحد...»

- **افتقار صحّي :** أي أن يصاب أحدهم بمرض أو علة أو وعكة صحيّة ، مثل :

- كرامة (8 – ح): « ... قال : خَرَجَت لي أَكَلَةٌ في الخدّ وطال أمرها وصارت تتزايد، وآيست من البرء ...»

- أو أن يكون **الافتقار افتعالياً**، من لدن الإنسان المعتدي ، كما هو في :

- كرامة (16 – ب): « وروي أن امرأة ضاع لها مفتاح بيتها وحاولته بكل حيلة... »
- كرامة (17 – د): « ...أن أختي عائشة غسلت حوائجها مع العشي ونشرتها في وسط الدار، ودخل رجل ورفع ردائها, وذهب به ليلا لدرب اليهود وأنزله عند يهودية مبلولا لم ييبس»
- كرامة (17 – هـ): «... ثم أن رجلا أتى فوجد باب الإسطبل مفتوحا فدخل فوجد تلا ليس الخيل فأخذها و جعلها في شاميته و خرج على باب الدرب »
- كرامة (17 – و):«... أنه سرق لنا دير السرج و السرج على ظهره الفرس... »
- كرامة (17 – ز):« ... سرق لنا لجام لبعض أضيافنا ...»

5 . وظيفة اختبار (إخضاع البطل للتجربة) : تأتي هذه الوظيفة حسب ترتيب بروب للوظائف رقم 12 فتتقدمها الوظائف التالية : التكليف ، قرار البطل ، الذهاب .إنّ طغيان الطابع الحكائي على السردي في الكرامات جعل اهتمام الراوي قليل بالأمور التمهيدية والأحداث الوسطية الرابطة بين مختلف الوظائف ، والعناية أقل بالحذلقة اللفظية ،

والتصنع الأسلوبي ... لأنّ من شأن ذلك أن يجعل مسافة فاصلة بين المروي ، ولهفة المروي لهم وتعطشهم لمعرفة طبيعة الخرق وكيفيته ،ذلك أن راوي الكرامة يسرد خبراً خارقاً للمعتاد ، والمروي له في حالة من التأهب والاستنفار الحسي والفكري والعاطفي ، يترقب بشوق تلك الصدمة التي يحدثها له سماعه لفعل الخرق، فمتلقي الكرامة ينفرد عمن سواه في كون محط اهتمامه ، وبؤرة تركيزه لا على التفاصيل الجزئية والسرد الانتقالي ، وإنّما على حدث الخرق . ومراعاةً لأفق التوقع ذلك يعمد الراوي في الكرامات على تهميش الأحداث الثانوية بل وحذفها حتى لا يُطيل ، فيثير الفتور والملل ويضعف لهفة المروي لهم في استقبال الكرامة .

وعليه كانت تلك الاختزالات ضرورة اقتضاها المقام التواصلي للكرامة . وكان من نتائجها أن تضم الوظيفة الواحدة في الكرامة عدّة وظائف أخرى تأتي بعدها و تنوب عنها .

إذ يمكن القول أن هذه الوظيفة حملت في ثناياها الوظائف التالية: وظيفة رقم 16: صراع أو معركة ، وعن الوظيفة 21 : مطاردة المهاجم للبطل، والوظيفة 24 : المزاعم الكاذبة للبطل المزيف، الوظيفة 25: المهام الصعبة المفروضة على البطل .

تعريفها: يعرفها بروب بقوله : « البطل يتعرّض لاختبار أو استنطاق ، أو هجوم ...إلخ يهيئه لتلقي أداة ، أو مساعد سحري »[14]

تبنى هذه الوظيفة في الأساس على وظيفة النأي ، والتي توفر مناخاً خصباً تتشكل فيه مجريات وظيفة الاختبار ، وهنا تكمن قيمة الحكاية وحبكتها. فالصوفي أو الولي يتعرض لامتحان يسفر في الأخير عن بيان مدى اختلافه عن الناس العاديين بما فيهم المريدين منهم، وقيمه هذا الامتحان لا تتبلور إلا بما يأتي بعده من أحداث حكائية ووظائف سردية ،حين تكون ردّة فعل الصوفي حيال الامتحان مفاجئة ، تجمع بين أمور واقعية وأخرى غيبية ،وتمزج التاريخي بالأسطوري ، وتتجاوز المعقول إلى اللامعقول منبئةً عن بلوغ أشواط في سلم المعارف الباطنية، وقطع مراحل في طريق المقامات والأحوال الصوفية ، فيستقطب بذلك قلوب السالكين ، والعامّة .

أشكالها :تحيلنا هذه الوظيفة إلى فعل تناقض كبير بين منطلقات رؤية الصوفي العميقة، ومنطقها من الوجود والحق ، وكذا رؤيته الخاصة لذاته والآخرين والحياة ...، وبين الموقف المغاير – المناقض أحياناً – النابع من التصورات الأولية السطحية للعامة من الناس .

وعليه أولى ابن مريم اهتماماً بالغاً في تشكيل آليات الصراع ، ورسم شخوصه ، وتشخيص حلقاته ، وبيان أطرافه ، ورصد أبعاده الخفية ، ذلك أن الموقفين(موقف الشيخ الصوفي – وموقف العامة) يصلان من التباين إلى حدّ التناقض واللا اتفاق الناتج عن المواقع المختلفة لزاوية النظر لكلّ منهما إلى: الشريعة، والحياة والحق، والوجود، والمعرفة ...

وهنا كان يلعب ابن مريم دوره الأساسي الاستراتيجي ضمن هذه الحبكة الحكائية ذات الطابع الجدلي ، إذ كان في كل مرة يحتدم فيها هذا الصراع ويتطور يتدخل موضحا ، معللاً ، مفسراً ، وموجها للمسار السردي للأحداث من منطقه هو كصوفي على بداية الطريق .

نتيجة لذلك بدت أشكال هذه الوظيفة ضمن كرامات البستان مختلفة متنوعة من حيث المظاهر والتجليات والكيفيات ن ولكنّها متشابهة في الدلالات والمعاني ، فمنها نجد :

أن يوضع الشيخ أو البطل في اختبار للتأكد من ولايته والتحقق من وصوله أعلى المقامات العرفانية ، أو اختبار علمه وحفظه ومدى درايته وتدبيره للأمور : مثل

- كرامة (15 – أ):« ... كتبت للشيخ سيدي محمد الهواري كتابا فيه نحو السبعين سطرا أشكو إليه فيه بأمور وأسأله عن أمور .فلما ذهب رسولي بالكتاب بدا لي و قلت لعل الرسول لا يضبط جواب الشيخ فتبعت الرسول فسبقني إلى الشيخ وأعطاه الكتاب. وقال له: هذا كتاب سيدي سليمان بن عيسى الذي بهوارة »
- كرامة (11 – ج):« ... أن رجلا جاءه ليعترض عليه، فجلس في الحلقة، فأخذ صاحب الدولة في القراءة، فقال له أبو مدين: أمهل قليلا، ثم التفت للرجل، و قال له : لم جئت ؟

فقال: لأقتبس من نورك» والحقيقة أنّه كان يروم الاستهزاء به في مجلسه .

- كرامة (4 – هـ):« ... وكان سيدي بويدير لا يزال يقف علي ويخبرني بأحوال الرجلين ، وكان في بعض الأيام يأتيني بجراح في جسده ، فأسأله عن ذلك ، فيقول لي : حضرت أمس مع سيدي محمد وسيدي أحمد غزوة وقعت بين الأندلس والنصارى، وغيرها من الأماكن البعيدة ،وإن أردت أن تراه فبكّر يوم الجمعة للجامع الكبير، وانظر خلف المقصورة فإن سيدي أحمد ينتقل هناك حتى يُفتح الباب الذي يخرج منه الخطيب فيذهب حينئذ لصلاة الجمعة في موضع كذا لا أدري بيت المقدس أو غيره » .
- كرامة (12 – ج):« ...أن الشيخ أتى لسيدي عبد الرحمان بن موسى ضيفا فسأله عن شرح السينية لسيدي أحمد ابن الحاج » .
- كرامة (12 – د):« ... و تعشى وذهب للجامع ،وذهب معه السيد العباس وراءه خفية ، ثمّ أنه ذهب لداره و صار يراقبه إلى أن وصل للجامع » .
- كرامة (11 – هـ):« ... أنه لما اختلف فقهاء بجاية في حديث: إذا مات المؤمن... فأشكل عليهم ظاهره... فجاءوا إليه » .
- كرامة (4 – أ):« ... فرد الناس إليه بالهم ، فرأوا ذلك الإبريق ينبع من قعره ماء كالعين وذكروا ذلك للشيخ سيدي أحمد المستدراتي، فجاء إلى السوق بنفسه وجلس بين الناس ودلّى قلمونة برنسه [15] على وجهه لئلا يُعرف. فلما اجتاز عليه الشيخ سيدي أحمد بن الحسن وهو يدور على الناس يسقيهم ، أخذ من يده الإبريق يريد أن يشرب ومقصوده اختبار ما ذُكر له من الخوارق ».
- كرامة (15 – ج):« ...أن السلطان أبا فارس لما توجه إلى هذه المدينة في خلافة السلطان أحمد، خاف منه السلطان أحمد كثيرا و هبط إلى الشيخ سيدي الحسن بن مخلوف و قال له يا سيدي إن هذا الإنسان توجه إلينا كما علمت فأستشيرك على ثلاثة أمور:
  - هل أذهب إليه و ألقاه في الطريق ؟
  - أو أصبر حتى يقدم إلينا ؟
  - أو أذهب إلى هنين فأركب منها البحر إلى الأندلس ؟ »

اختبار مدى توفيق الولي في مجاهداته للنفس والهوى وأطماع النفس البشرية ، وامتحان صبره واحتماله للأذى والبلاء والمحن والأهوال والأخطار ...من ذلك نعثر على الكرامات التالية :

- كرامة (8 – أ):« قالا: كان يتوضأ في صحراء يوما، فإذا بأسد عظيم قد أقبل فبرك على سبّاطه[16]».
- كرامة (8 – ب):« قال: دخلت في يوم حرّ على سيدي الحسن، فوجدته في تعب عظيم، والعرق يسيل عليه فقال : أتدري ممّ هذا التعب الذي أنا فيه ؟ قلت: لا يا سيدي !! فقال: أني كنت آنفا جالسا بهذا الموضع فدخل علي الشيطان في الصورة التي هو عليها »
- كرامة (13 – أ):« فقلت: و أين الجمل ؟ فقال: ذهب.

فقلت: لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم، ذهب الجمل »

- كرامة (20 – ج):« أن بعض الأعراب أراد أن يختبره فجاء خلف ظهره، وصار يومئ للحاضرين لا تخبروا الشيخ »
- كرامة (21 – أ):« كراماته أن بعض الأعراب جاء وله زرع فوجد فيه عجولا صغار من دوار الأدغم، فقتل جميعهم »
- كرامة (22 – أ):« فبينما هو ذات يوم يقرئ الطلبة إذ دخل عليه من باب المسجد حنش ففرَّ الحاصرون من هيبته

أن يكون الاختبار في شكل استغاثة وطلب العون من الشيخ ، والاستنجاد به ، من بعيد أو من قريب، حيّاً كان أم ميتاً ، من ذلك :

- كرامة (8 – د):« ، فصرت أستغيث بالشيخ سيدي الحسن »
- كرامة (8 – ي):« أنه لما صعد إلى الحج، ركب في سفينة فأصابته محنة فيها ورمته بالعراق.
- قال: فأصابني كرب عظيم من أجل فوات مقصدي، وخيبة رجائي، فدخل علي الشيخ سيدي الحسن، وأنا مستيقظ غير نائم وقال لي: اصبر يفرج الله عنك »
- كرامة (13 – ب):« قال : أني دخلت السجن في فاس ، فقلت : يا سيدي عبد الله بن منصور ، أنا جارك »
- كرامة (16 – ب):« كان يقول : من كانت له إلى الله حاجة فليتوسل بنا و ليقدمنا .وروي أن امرأة ضاع لها مفتاح بيتها وحاولته بكل حيلة ثم أنها وضعت يدها على الفرخة (كذا)* و نادت يا جاه سيدي محمد بن يوسف السنوسي »
- كرامة (24 – ب):« فقال لزوجته : اذهبي إلى الشيخ واطلبيه أن يسمح لي »

أو أن يكون الاختبار واقعة شهودية كشفية تحدث للبطل ، ويكون الحل الأمثل لحبكة هذا الخرق في هذه الحالة هو تفسير تلك الواقعة ، هذا النوع من الاختبار موجود في كرامة واحدة ضمن كرامات البستان ،هي :

- كرامة (11 – ب):« : أ وقفني ربي عز وجل بين يديه، وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك ؟

قلت: يا رب عطاؤك.

قال : عن شمالك ؟.

قلت : يا ر ب قضاؤك.

فقال : يا شعيب ، قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا ، فطوبي لمن رآك أو رأى من رآك »

6 . وظيفة ردّ فعل البطل على الاختبار:

تعريفها : من الأصلح أن نسميها ضمن الدراسة الوظائفية للكرامات الصوفية بـ وظيفة **حل الاختبار وتفسيره** ،لأنها كذلك فعلا، يقول بروب في تعريفه لها: « البطل يردّ على الأفعال الواهب المقبل... في الغالب الأعم من الأحوال يكون ردّ الفعل إما إيجابيا أو سلبيا»[17] ، حتى توضع الأداة السحرية تحت تصرفه.

في كرامات البستان تستغرق هذه الوظيفة عدة وظائف، فهي تحمل في تلافيها وظيفة (14) **تلقي أو استلام الشيء السحر أو أداة المساعدة**، والوظيفة رقم (12) **الانتصار (انهزام المعتدي)**، ووظيفة رقم (19) **إصلاح الافتقار وتعويض النقص والإساءة**، ووظيفة (22) **النجدة المقدمة للبطل**، ووظيفة (26) **المهام المنجزة من طرف البطل**، « وبطبيعة الحال تتطابق الأشكال التي تنجز فيها المهام ببالغ الدقّة وأشكال الاختبار، وهناك مهام تنجز قبل أن يتمّ التكليف بها أو قبل أن يُطالب بإنجازها من يكلّف بها»[18]

كلها وظائف لا تخرج حسب مجريات التفكير العقلي عن حدود تلك الوظيفة الأساسية التي تشكل منعرجا حاسما في سير حبكة الكرامة .

إن الفعل سيتوجب ردّ فعل، والكفاح سيتوجب المكافأة وهكذا ... ولكن بفعل الرؤية الاختزالية لأبن مريم دُمجت الكثير من الوظائف المتشابهة في وظيفة واحدة رئيسية مركزية تنهض بالمعنى .

أشكالها: لقد مثّلت وظيفة الاختبار أقصى التطورات السرديّة وأعلى برجات الحبكة القصصية حين تناما الحدث وتفاقم حتى أصبحت الحاجة إلى الحل ضرورة لازمة، والحل في القصص الصوفي يُحقق غايتين:

الأولى: الانتهاء إلى تمام الفكرة، التي لا بد أن تسير إلى خاتمة توصل إلى نهاية منطقية أولا منطقية بحسب أهداف معين يقصدها الراوي ويروم تحقيقها .

الثانية: وهي الأهم كون نهاية القصة الصوفية مقترنة « بفك رموز الحكاية، وانتقال صوت الراوي العليم من ممارسة دور رواية أحداث الحكاية وهو مفارق لها، إلى ممارسة دور مفكك رموز النص الحكائي فيتوجه بلغة خطابية مباشرة ليُعلم الهدف من الحكاية» [19]

ولتفصيل ذلك نعود إلى نماذج تطبيقية من كرامات البستان تجسد حضور تلك الغايتين بشكل جلي :

نجاح الولي في الاختبار وتأكد ولايته وارتقائه في المقامات العرفانية

- كرامة (4- أ)« فرأى الإبريق على ما حكي له فعرف من حينئذ سيدي أحمد بن الحسن، وأنّه من أهل الكرامات».
- كرامة (8- أ) « ...فلما فرغ من وضوئه التفت إلى الأسد، فقال له: تبارك الله أحسن الخالقين، ثلاثا، فأطرق الأسد برأسه إلى الأرض كالمستحى ثّم قام ومضي ».

كرامة (8- ب) «...فقمت إليه، فهرب أمامي فتبعه...فمازال يهرب ...إلى أن غاب عني الآن رجعت من إتباعه».

- كرامة (9- أ) «...فقالا لي نعرفه بمكّة يصلي معنا كل يوم بمكّة ».
- كرامة (12- ج) «...كان الأمر كما قل الشيخ في الدنيا ونرجو الله في الآخرة ».
- كرامة (12- هـ) «... فكان الأمر كما ذكر سيدي عبد الرحمان نفعنا الله به آمين ».
- كرامة (22- أ) «...فأخذها الحنش...وسار عن الشيخ بعدما تمرَّغَ بين يديه وكأنّه يطلب منه الدعاء وانصرف راجعا من حيث أتى ».

أن يتعرف الولي نفسه على المنح الربانية، وكأنه يكتشف ذاته ويحلّ لغز نفسه :

- كرامة (4- ب): «...أهمل ذلك المسجد لاشتغال الناس بأمر الجوع، فبقيت مدّة طويلة حتى فتح الله تعالى على الناس فذهبت إلى ذلك المسجد وفتحته، فلما دخلته وجدت سيدي أحمد بن الحسن فيه نائما على ما تركته فيه، فاستفاق عند دخولي عليه، وظن أنه إنما نام ساعة أو نحوها فقام وخرج »
- كرامة (7- أ): «...فسمعت هاتفا خلف ظهري يصوت: آمنا من النار يا إبراهيم ثلاث مرات أو مرتين».
- كرامة (8- ج) «...فرفع الكلب رأسه وقال لي بلسان فصيح : إلى يوم يبعثون».
- كرامة (11- ب): «...فقال: يا شعيب، قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا، فطوبي لمن رآك أو رأى من رآك»

أن يعترف من أراد ظلما للولي أو طعنا في ولا يته بخطئه ويتراجع عن ذلك بل ويصبح من أصدق و أخلص أتباعه وأوفاهم في خدمته وولائه:

- كرامة (4- ج): «...فلما دخلت قدّمت رجلي للدخول فبقيت معلّقة في الهواء لا أستطيع أن أضعها بالأرض ساعة ، فصرت أحاول الرجوع إلى ورائي حتى بعدت عن المقصورة »
- كرامة (4- د) « فصرنا نظير ساعة وتطوى لنا الأرض ساعة، وإذا جئنا إلى البحر يلتقي طرفاه فنجتازه بقدم واحدة وقد جزنا على "مصر" بالليل ونحن في الهواء وهي تحتنا مملوءة بالمصابيح فقضينا الحج، ورجعنا إلى موضعنا من تلمسان»

- كرامة (4- هـ): «...فبكرت يوم الجمعة للجامع...فوجدت رجلا تقدمني هناك ....وجئت إلى جانبه ووقفت أتنفَّل وأنا أراقبه...فلما فتح المؤذن الباب الذي يخرج منه الخطيب...نظرت إلى الرجل فلم أرى إلا موضعه ولم أدر هل الأرض ابتاعته أو السماء رفعته».
- كرامة (6- ب): «...فقلت في نفسي: لم يفعل هذا؟ أتراه يقرأ عليه أحد من الجن؟ فما تم الخاطر حتى قال لي: يا محمد كان بعض الشيوخ يجود عليه الجنّ القرآن».
- كرامة (8- ك): «...وعرفت أن الشيخ ردَّها إلى الشكارة من بيته خرق عادة ».
- كرامة (8- د): «... فتيقنت في ذلك الوقت أنا وسيدي علي أنَّه كاشفنا بما وقع منَّا في الليل».
- كرامة (11- ج): « فقال له: افتحه واقرأ في أول سطر يخرج لك، ففتحه وقرأ أول سطر ....

فقال أبو مدين، أما يكفيك هذا؟

فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله».

أن يلبي الولي استغاثة من استجار به ويعطيه سؤله:

- كرامة (8- د): « فصرت أستغيث بالشيخ...فرأيت الشيخ عيانا بصورته ولباسه، فصاح على العرب الذين حازوا حماري صحية عظيمة، فدهشوا، ورفعوا أيديهم عن الحمار فجرى إلى جهتي حتى وصل إليّ وجئت به».
- كرامة (8-هـ): «...فلما استيقظت من نومي قلت للسلطان محمد: أنا اليوم منطلق، قال لي: من أين لك بذلك؟ فقلت له: الشيخ سيدي الحسن أطلقي، فذكرت له الرؤية فقال لي: نفعتك استغاثتك ... فلم يتعال النهار، إلا والنداء على: أين فلان؟ ...فخرجت...»

7. وظيفة عقاب البطل الزائف (أو المهاجم):تعريفها :رقم هذه الوظيفة في مثال بروب هو(30) ولقد دمجت هنا بينها وبين الوظيفة (28) وهي **اكتشاف البطل الزائف** حيث يسقط عنه القناع ويعاقب، يقول بروب «إذ يُقتل بطلقة بندقية، أو يطرد، أو يوثق إلى مؤخرة فرس، أو ينتحر... ونجد أنه في بعض الأحيان، لا يُمسُّ بأذى وذلك بفضل عفو كريم»[20] من الواضح أن لها أشكال لا حصر لها لأن الاعتداء هنا لم يكن على بطل عادي إنما كان على بطل له ثقله الديني (ولي)

أشكالها : من أبرز أشكالها **أن يتلقى المعتدي درسا يجعله يتراجع عما بدر منه ويسُّر الندامة**

- كرامة (8- و) «... قال له: أنظروا قوة ثبات هذه السكين في غمدها ومع ذلك فقد كنت معدوما في هذه الساعة لولا فضل مولانا ...فخلّف الله تعالى في قلبي تلك الساعة أن الذي أصابني إنما هو بسبب هذا المسجون، وما عزمت عليه من تعذيبه وضربه وأخذ ماله بعد أن شفع فيه ذلك الرجل الصالح...فحلفت في تلك الحالة...لأطلقنَّهُ بنفس رجوعي من الصلاة ولا آخذ منه شيئا ».
- كرامة (8- ز) «...فلما رأى السلطان أبو فارس ذلك، تاب إلى الله ورجع عما عزم عليه...».
- كرامة (13-ج): «...وكرر عليه الضرب والسلطان يصيح: أنا تائب لله تعالى، أنا تائب فرفع الشيخ الضرب عن السلطان، وصار الشيخ يقول: من تاب تاب الله عليه».
- كرامة (24- ب): «...تم انتفخ بطنه وأشرف من ذلك على الهلاك فقال لزوجته: اذهبي إلى الشيخ واطلبيه أن يسمح لي...فامتنع وقال لها: خليه حتى يتوب فإني أوصيته وخالف أمري ثم عافا عنه وقام...ليس به داء بعد ما أشرف على الهلاك».

أن يتلقى المعتدي العقاب الذي يستحقه ويلقي حذفه ويؤول إلى (الهلاك):

- كرامة (8- ط): «...فأتاه البشير من فوره برأس الشيخ عمارة وأنه أجرى فرسه...فسقط عنها وأدركوه فقطعوا رأسه».

- كرامة (12- ب): «...فمرض ذلك الرجل من ساعته وصار يصيح: جذبي، بطني ظهري، ويكوى حتى مات».
كرامة (15-ج): «...ثم كان من قضاء الله وقدره أن السلطان لما بلغ جبل ونشريس وطوَّع أهلها بالقهر رجع ...في شرٍّ حال ومات في يوم عيد بلا تقدم مرض»
- كرامة (15- د): «... وقد أهلكه الله هلاكا غريبا فاحشا، قد عجَّل عليه الشيخ يعني أنه اشتدَّ غضبه فدعا عليه... والعياد بالله من أذية أوليائه والتعرض لأصفيائه».
- كرامة (21- أ): «...ثمّ إنّ الأعرابي صار ينتفخ ويصيح ارفعوني إلى الأدغم حتّى خرجت روحه »
- كرامة (21- ب): « وقام العرب يتقاتلون مع الترك، فأخذ ذلك العربي ضربة برصاصة فمات من ساعته».

8. وظيفة مكافأة البطل الحقيقي: تعريفها : وهي تنوب عن الوظائف التالية: وظيفة (27) **التعرف على البطل**، وظيفة (29) **تغيير هيئة البطل** وظيفة (31) **تكريم ومكافأة البطل الحقيقي**.

والتعرُّف على البطل الحقيقي يكون بفضل العلامات التي تلقاها أو بفضل الشيء الذي أعطي له، كما يتمُّ التعرف عليه أيضا بفعل إنجازه للمهمّة الصعبة التي كُلف بها (وظيفة إنجاز المهمة).

هذه الوظيفة تتحكم بخواتيم القصص ونهاية الأحداث الحكائية وفيها يتضح بجلاء دور الراوي ووجهة نظره في تأويل قيمة الحكاية ومغزاها، بتقديم تفسير لفظي للأحداث من الداخل أو من الخارج،

وهنا يكون دور الروي جد حسَّاس وحاسم في حل الحبكة حلا يخدم توجهه العقدي من جهة ويثير في المروي له، انطباعات ذهنية، وقناعات عقلية، وأحكام أخلاقية، وحتى ترسخ هذه الحقيقة أكثر إليكم الأشكال الختامية التالية.

أشكالها: أن يعترف المذنب في حقّ الولي بخطئه ويقرّ له بالولاية

- كرامة (8- و): «...ولا زمته من ذلك الزمان، ولم أفارقه، لما رأيت له من البركة، رحمه الله تعالى ورضي عنه، ونفعنا ببركاته، آمين».
- كرامة (8- ز): «...ومن تلك الليلة عُرِفَ مقام سيدي الحسن وصار يُعظِّمه الناس كثيرا».

أن يكون هناك شاهد على حادثة الخرق، ويسلم بولاية الشيخ من عجب وهول ما رآه من الخوارق العظام

- كرامة (4- ب): «...خرجت وعرفت أن الله سبحانه لطف به وغيّبه عن فتنة الجوع ومشاهدة ما أحاط بالناس فيها، كما غيب، أهل الكهف وذلك من الخوارق العظام».
- كرامة (15- أ): « ...فرجعت وقد قضيت العجب بما رأيت، وحملني ذلك على أن جعلت في مدحه، وما رأيت له من الخوارق قصيدة تزيد عن ستين بيتا أو قال سبعين بيتا...».
- كرامة (15- ز): «...وقد ظهر من الشيخ بذخائر من الحكم الربانية ووصل بسببه إلى الرسوخ في مقامات غريبة عرفانية، ولا شك أنّ من شاهده يفهم من لسان حاله تمكينه في رتبة الولاية ورسوخه في مقام أهل التصوف والمعرفة».

5) تقييم منهج بروب الوظائفي في تحليل الكرامات الصوفية في "البستان":

1) ركّزت دراسة بروب على البناء الداخلي للحكاية لا على تصنيفها الخارجي أو ألموضوعاتي، فكشف عن العناصر الثابتة ووجد أن التغيير لا يكون إلا على مستوى أسماء الشخصيات وأوصافها، بينما الثابت فهو عمل الشخصية أو وظيفتها داخل مسار الحبكة الحكائية .
2) النموذج الذي اختار بروب وظائفه منظم مقولب وفق مسار محدد ذو طبيعة غائية واضحة تبدأ بـ(حدوث إساءة) وتنتهي (إصلاح الضرر الحاصل)[21] ، ورغم التمايز الكبير بين الحكايات الخرافية وبين الكرامات ، كأنماط للتعبير ، إلا أنّنا حاولنا مقاربة تلك النصوص بهذا البناء الوظائفي ، وبدا لنا أنّ طبيعة النصوص الكرامية كانت تفرض نوعا محددا من الوظائف، يتواتر ذكرها أكثر من غيرها .

3) ولأنّ النماذج المدروسة تميل إلى الاختزال والتكثيف اللفظي والاتساع والتبئير الإيحائي والدلالي، فإن ذلك يعمل على خلق إطار تجريدي واسع يجعل بالإمكان انضواء عدة وظائف مختلفة في وظيفة واحدة.

4) كانت معظم الكرامات تشتمل على أصول وزيادات، فالأصل هو حادثة الخرق نفسها وتبقي الزيادة في الوضع الأولي للكرامة وخاتمها، وحديث الراوي المُفَسِّر، إذ لا نغادر قصة عند آخر حدث فيها إلا وقد انبرى الراوي ليفسر ويوضح ويفك الرموز المتوفرة، بلهجة خطابية مباشرة توضع المقاصد ، وهو ما يُضيق حيّز حرية التأويل للسامع أو القارئ.

ولعل ذلك عائد إلى دقة الفكرة الدينية وحساسية تناولها أو التكلم فيها أو عنها، فضلا عن الهدف الأسمى للمُريد: من دعم وتوجيه وبلورة المغزى الصوفي من الكرامة.

5) إضافة إلى كل ذلك نلاحظ في هذا التحليل الشكلاني البنوي إلغاء للبعد الذاتي للأثر القصصي ، إذ ما علاقة الوظائف في القصة بمرجعيات المؤلف وسياقه التاريخي والفكري والأدبي ؟

6) ما قام به "بروب" هو قراءة أفقية سياقية لم تأخذ بعين الاعتبار أن الدلالة لا توجد في نهاية السرد فقط بل على امتداده، والمطلوب في قصص صوفي مثل الكرامات قراءة عمودية تغوص إلى عمق المعنى.

7) على الرغم من أن منهج "بروب" إنجاز نقدي هاما على صعيد تحليل القصص و الحكايات، إلا أن آلية كشف الخيط المشترك الذي يضم عناصر متشابهة عبر قصص كرامية متعددة لا يصل إلى تقديم تصور متكامل عن بنية العمل القصصي. إن «هذا البتر والاكتفاء بالتشخيص دون المعالجة جعل الجهد المركزي الذي ينهض به بروب في مجال البحث الأدبي يتمحور حول اكتشافه نموذجيا عاما لتفسير القصص»[22]

وهو ما يجعلني أقول : أن مثال "بروب" الوظائفي من الناحية الشكلية كان بمثابة الثوب الفضفاض في مقاربة الكرامات الصوفية، أما من ناحية المعنى، فلا نكاد نعثر له على محاولة رؤيوية تفيض بإضاءات دلالية للبنية العميقة .

الهوامش:

[1]- هو: الشيخ الإمام العلامة القدوة الهمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن احمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، كان حيًّا حتى عام 1044(هـ1605م) وهو من منطقة الحنايا بالقرب من تلمسان، احترف التعليم وسار على خطى أبيه في ذلك حيث كان والده معلما للصبيان بالمكتب وكان أن أمره والده قبل موته أن يأخذ مكانه ويواصل تعليم الصبية القرآن، وأحكام الشريعة ودعا له فتمكن من ذلك فعلا وتخرج على يديه الكثير من التلاميذ والتابعين كان لمعظمهم دوراً بارزاً في الحياة الفكرية والعلمية والروحية بتلمسان فجمعوا بين علوم الظاهر والباطن ويقال أن عددهم أزيد من أربعين طالب، منهم خاصة عيسى البطيوي الذي سار على خطى أستاذه في تاليف كتب المناقب من خلال كتابه (مطلب الفوز) وصف البطيوي شيخه ابن مريم بأنه لم يرى مثله في قيام الليل وتلاوة القرآن والحرص على نشر العلوم وانه كان كثير المطالعة للكتب وانه كان يقول:« ما أردت كتابا إلا ومكنني الله منه دون تعب». كان ابن مريم يبدي إعجابا شديدا بشيوخه وأساتذته الطريقة من كبار الصوفية كالمقري، والسنوسي، ويُنظَر إليهم نظرة القداسة لذلك أكثر من سرد كراماتهم وخوارقهم، والتأليف فيهم. ترك ابن مريم عند وفاته نحو ستمائة كتاب(600) لكن معظمها للأسف قد أفْنَتْهُ أيدي النسيان، وأذهبت به عوادي الأيام، ولم يكد يسلم من الضياع سوى كتابه الشهير الموسوم بالبستان وقد ذكر منها في خاتمة كتابه أثنا عشر مؤلفا له كلها في العقائد والأذكار، والأحاديث النبوية، وحكايات الصالحين، وسير الأولياء والإيمان بكراماتهم وبركات دعائهم منها:

1- تحفة الأبرار وشعار الخيار في الوظائف والأذكار المستحبة في الليل والنهار.

2- فتح الجليل في أدوية العليل لعبد الرحمان السنوسي.

3- كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد.

4- تعليق مختصر على الرسالة في ضبطها وتفسيرها بعض ألفاظها.

5- غنية المريد لشرح مسائل أبي الوليد.

6- فتح العلام لشرح النصح التام للخاص والعام لسيدي إبراهيم التازي.

7- التعليقة السنَّية على الأُرجوزة القرطبية...ومنها هذا التأليف-أي البستان-« المشتمل على عدد أولياء تلمسان وفقهائها في حوزها وعمالتها الأحياء منهم والأموات هذا ما أمكنني جمعه أما الإحصاء فلا أقدر على إحصائهم».

[2]- يُنظَر: ناهضة ستّار: بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات، الوظائف، التقنيات، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2003 م, ص: 2.

[3]- ناهضة ستّار: بنية السّرد، ص: 1.

[4]- يُنظَر: فلاديمير بروب: مورفولوجية الخرافة، ترجمة: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين, ط: 1, 1986/1407, ص: 7.

[5]- فلاديمير بروب: مورفولوجية الخرافة، ص: 7.

[6]- يُنظَر: ناهضة ستّار: بنية السّرد، ف: 2، م: 1، ص: 3.

[7]- ناهضة ستّار: بنية السّرد، ص: 6.

[8]- عبد العالي بشير: تحليل الخطاب السّردي والشعري، منشورات مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران – الجزائر، د ط، 2003 م، ص : 71.

[9]- بروب: مورفولوجية الخرافة, ص: 39.

[10]- ناهضة ستّار: بنية السّرد ،ص: 3.

[11]- المرجع نفسه, ص: 3.

[12]- يُنظَر: بروب: مورفولوجية الخرافة ، ص: 41 .

[13]- يُنظَر: بروب: مورفولوجية الخرافة، ص: 43 .

[14]- بروب: مورفولوجية الخرافة، ص: 49.

[15]- أي: قبعةَ رداءه .

[16]- السباط هو : الحذاء باللهجة العامية .

[*]- الأصح: الفتحة:أي فتحة قفل الباب.

[17]- بروب: مورفولوجية الخرافة، ص: 51.

[18]- المرجع نفسه، ص: 66.

[19]- ناهضة ستّار: بنية السّرد، ص: 10- 11.

[20]- بروب: مورفولوجية الخرافة، ص: 68.

[21]- ناهضة ستّار: بنية السّرد ، ص: 5.

[22]- المرجع نفسه، ص: 5.